المجلة العالمية للعلوم الشرعية والقانونية
الإصدار الثامن والأربعون
المجلد (٦) العدد (٤)
٢٠٢٣ (١-١١)

المجلة العالمية
للعلوم الشرعية والقانونية

Middle East Institution of scientific Publishing

تفسير القرآن بالقرآن من خلال تفسير الطبري –سورة البقرة نموذجاً–

د. عبدالعالي المزواري

نُشِرَ إلكترونياً في: **١٦ أغسطس ٢٠٢٤م**

*** مقدمة**

فإن الله تعالى قد أمر عباده باتباعه كتابه والعمل بما أنزله وشرعه فيه فقال:"**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ * قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** "،[1] وهذا العمل لا يتأتى إلا بقراءة القرآن وتدبّر معانيه، ولا يتأتى بلوغ الثاني إلا بتحقيق الأول، وعلى ذلك سار نهج المسلمين في العناية بالقرآن الكريم قراءةً وترتيلاً، وتدبّراً وفهماً، وتطبيقاً وعملاً، ابتداءً من قدوتنا وسيدنا محمد ﷺ إلى يومنا الحاضر، مروراً بأفذاذ الأمة وصنّاع تراثها العامر الزاهر.

وقد جرى الإطباق، وتحقّقَ الإجماع، على أنه لا يتكلم في تفسير القرآن الكريم وتأويله إلا من توفّرت فيه الأهلية لذلك. وفي تحديد شروط هاته الأهلية بُسطت كتبٌ وسالت أقلام، وكان من هذه الشروط والمحدّدات، التمكّن من أصول التفسير وقواعده التي بها يَسْلَمُ المفسّر من الزلل، ويجتنب مخاطر السقط والخلل، ومن أهم تلك الأصول، أن يجعل في رأس أولوياته، تفسير القرآن بالقرآن، لأنه ليس أحد أعلم بكلام الله من الله جل جلاله.

وعنايةً بهذا الأصل وأوجهه المتعدّدة، ووقوفاً على تفصيلاته وأسلوب اعتماده عند المتقدّمين، جاء مقالي هذا للنظر في استعمال هذا الأصل واعتماده عند الإمام المفسّر محمد بن جرير الطبري رحمه الله، وذلك من خلال تفسيره لسورة البقرة في كتابه المشهور "جامع البيان في تأويل آي القرآن".

*** منهج البحث**

لقد قمت في مقالي هذا باعتماد منهج الاستقراء والتتبع لمواطن إعمال أصل (تفسير القرآن بالقرآن) في سورة البقرة عند الإمام الطبري في تفسيره "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، فجمعت ما تيسّر لي الوقوف عليه من ذلك، ثم صنّفتها حسب أوجه استعمال هذا الأصل، وقد بيّنت كل وجهٍ بقدر ما يجلي معناه، ثم أقمت عليه الأدلة مما وجدته، فقسّمت مقالي هذا إلى مبحثين زيادة على الـــمقدّمة والخاتمة، الأول تضمّن نبذة مختصرة عن الإمام الطبري وتفسيره، ثم الطبعة المعتمدة في الدراسة.

أما المبحث الثاني الذي هو اللّب والنواة فجاء في ستة مطالب: الأول في بيان مفردة بمحل آخر مبين لها، والثاني في حمل القراءات بعضها على بعض، والثالث في احتمال اللفظ لأكثر من معنى كلها يشهد لها القرآن، والرابع الترجيح بين الاحتمالات المتعددة لمعنى اللفظ، والخامس في بيان مرجع الضمير، والسادس بيان المحذوف

[1] - سورة الأعراف آية 2.

من الجملة، ثم أدليت بخاتمة موجزة عن أهم ما استفدته، فالله أسأل التوفيق والقبول، إنه نعم المجيب.

*** الإمام الطبري وتفسيره**

*** الإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (224 – 310هـ)**

ترجم له الإمام الذهبي في التاريخ فقال: "الْإِمَام، صاحب التّصانيف. مِن أهلِ آمُل طَبَرِسْتان، طوَّفَ الأقاليم.

جمع مِن العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصرِه، فكان حافظًا لكتاب اللَّه؛ بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصّحابة والتّابعين، بصيرًا بأيّام النّاس وأخبارهم"[1]، ووصفه في السير فقال: "الإِمَامُ، العَلَمُ، المجتهدُ، عَالِمُ العَصر، أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ البَدِيْعَة"[2].

"استوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. له (أخبار الرسل والملوك – ط) يعرف بتاريخ الطبري، في 11 جزءا، و (جامع البيان في تفسير القرآن – ط) يعرف بتفسير الطبري، في 30 جزءا، و (اختلاف الفقهاء – ط) [..]. وهو من ثقات المؤرخين.

قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحدا، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحا"[3].

*** تفسير الإمام الطبري**

يعدّ تفسير الإمام الطبري المسمّى بـــ "**جامع البيان في تأويل آي القرآن**" عمدة في التفاسير، فقد ضمّنه الإمام الطبري غاية طلبه وعلمه، وخلاصة فقهه واجتهاده، ورام به أوج البيان والإفهام، وحسبي في هذا المعرض الموجز للدلالة على قيمة هذا التفسير أن أورد ما ساقه ابن سبكي في طبقاته حيث قال: "قَالَ الْحَاكِم سَمِعت أَبَا بكر بن بَالَوَيْهِ يَقُول قَالَ لِي ابْن خُزَيْمَة بلغني أَنَّك كتبت التَّفْسِير عَن ابْن جرير، قلت: نعم، إملاء، قَالَ: كُله؟ قلت: نعم، قَالَ: فِي كم سنة؟ قلت: من سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ إِلَى سنة تسعين، قَالَ: فاستعاره مني ابْن خُزَيْمَة ثمَّ رده بعد سِنِين ثمَّ قَالَ: نظرت فِيهِ من أَوله إِلَى آخِره وَمَا أعلم على أَدِيم الأَرْض أعلم من مُحَمَّد بن جرير وَلَقَد ظلمته الْحَنَابِلَة"[4]، فالتفسير يحوي علم الإمام ورغوة اجتهاده.

---

[1] - أنظر: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2003 م، ج7/ ص: 170.

[2] - سير أعلام النبلاء شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405 هـ / 1985 م، ج14/ ص: 267.

[3] - الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م، ج6/ ص: 69.

[4] - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت 771هـ)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1413هـ، ج3/ ص: 120.

*** النسخة المعتمدة في الدراسة**

لقد حظي تفسير الإمام الطبري بعناية فائقة، مردّها إلى قيمة المؤلَّفِ ومؤلِّفِه، فطبع طبعات عديدة، توفر لدي منها ثلاثة، الأولى فكانت بتحقيق الدكتور أحمد محمد شاكر، نشرها عنه مؤسسة الرسالة في أربع وعشرين مجلّداً، والثانية بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشرها دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، وتقع في ست وعشرين مجلّداً، أما الطبعة الثالثة فمن تحقيق كل من هاني الحاج وعماد زكي البارودي وخيري سعيد، صادرة عن المكتبة التوفيقية.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على الطبعة الأولى بتحقيق الدكتور أحمد محمد شاكر، لما توفر فيها من جودة التحقيق والترتيب، وسهولة في البحث.

*** الدراسة التطبيقية**

*** بيان معنى المفردة بمحل آخر مبيّن لها في القرآن**

أولاً: بيان معنى المفردة بما يليها

يُعدّ من أوجه تفسير القرآن بالقرآن، أن يدلّ على معنى المفردة منه، عبارةٌ أخرى تعقب تلك اللفظة تبيّن معناها، فيتبيّن بتلك العبارة معنى اللفظة ودلالتها بما لا يحتمل تأويلا غير ما دلّت عليه، وهذا مما اعتمده الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره، ومن الشواهد على ذلك في سورة البقرة، تفسيره للفظة (المتّقين) في قوله تعالى:

"**الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ * فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**"[1]، ففسّرها بما تلاها من وصف لهؤلاء المتّقين فقال: "[...] عن قتادة: (هدى للمتقين)، هم مَنْ نعتَهم ووصفَهم فأثبت صفتهم، فقال: "**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**" [2]"[3].

ثانياً: بيان معنى المفردة بمفردة أخرى أوضح منها في الموضوع بعينه

لقد اعتمد الإمام الطبري رحمه الله وجهاً آخر من أوجه بيان المفردات، وهو بيان معنى المفردة بمفردة أخرى أوضح منها في الموضوع بعينه، بمعنى أن "يرد الشيء في آية بلفظ مبهم، أو غريب أو محتمل، ويجيء ذكره في موضع آخر بلفظ أصرح وأوضح، فيحمل الأول على الثاني"[4]، وهذا غير ممتنع حتى وإن قلنا بعدم الترادف في القرآن حسب القاعدة الراجحة "مهما أمكن حمل ألفاظ القرآن على عدم الترادف فهو المطلوب"[5]، إذ يُحكم أن لكل لفظٍ معنى خاص مغاير عن الآخر في الجزئيات المتعلقة بالصفات ونحوها، إلا أنها تشترك في قدر معين من المعنى الأصلي، وبيان بعضها لبعض هو في ذاك القدر المشترك.[6]

---

[1] - سورة البقرة آية 1.

[2] - سورة البقرة آية 3.

[3] - جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، ج1/ ص: 233.

[4] - تفسير القرآن بالقرآن دراسة تاريخية ونظرية للدكتور محمد قجوي، مركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء، مطلعة المعرف الجديدة، الطبعة الأولى، 1436هـ/ 2015م، ص: 427.

[5] - قواعد التفسير جمعاً ودراسة لخالد بين عثمان السبت، سلسة القواعد والضوابط والكليات، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1421هـ، ج1 / ص: 460.

[6] - تفسير القرآن بالقرآن، ص: 428.

ومثاله بيان الإمام الطبري لمعنى (فأتـــمّهُن) في قوله تعالى: "**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**" [1] فيما رواه عن ابن عباس في ذلك قال: "قال ابن عباس: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم، ابتلاه الله بكلمات، فأتمهن. قال: فكتب الله له البراءة فقال: "**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**" [2]"[3]، فاستدلّ بآية أخرى نظيرة لها وفي نفس الموضوع.

ومثاله أيضا عند تفسير الإمام الطبري رحمه الله لقوله تعالى:"**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ * كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ * إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**" [4]، فـــذكر أن الله "جعل البرق لإيمانهم مَثلا. وإنما أراد بذلك: أنهم كلما أضاء لهم الإيمان، وإضاءتُه لهم: أن يروْا فيه ما يُعجبهم في عاجل دنياهم، من النُّصرة على الأعداء، وإصابة الغنائم في المغازي، وكثرة الفتوح، ومنافعها، والثراء في الأموال، والسلامة في الأبدان والأهل والأولاد، فذلك إضاءتُه لهم، لأنهم إنما يُظهرون بألسنتهم ما يُظهرونه من الإقرار، ابتغاءَ ذلك، ومدافعةً عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذَراريهم، وهم كما وصفهم الله جلّ ثناؤه بقوله: "**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ * فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ * وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ * ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** "[5]"[6].

ثالثاً: بيان معنى المفردة بسياق آخر لها أوضح من الأول

وهذا وجهٌ مهمّ من تفسير القرآن بالقرآن، فمعلوم أن اللفظ عند العرب قد يختلف معناه ووضوحه وخفاؤه حسب السياق الموضوع له، فيستعان بالسياق الواضح للفظ لفهم المقصود منه في السياق الآخرَ الخفي، وهكذا هو الحال في القرآن العربي المبين، فقد يرد اللفظ في سياق يخفي معناه أو يشكل أو يحتمل، فيصار لحمله على معنى دون غيره، إلى سياقات أخرى وردت بمعنى هذا اللفظ، فيترجح الظاهر من ذلك على غيره.

ووجه استعمال هذا الوجه عن الإمام الطبري كثير، سأورد منه نماذج، مختصِراً العبارة والبيان، دون إقلالٍ أو إملال.

١- عند بيانه رحمه الله معنى الكفر في قوله تعالى:" **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**" [7] قال رحمه الله: "وأصل الكفر عند العرب: تغطية الشيء [...] فكذلك الأحبار من اليهود غطوا أمر ﷺ وكتموه الناس -مع علمهم بنبوته، ووجودهم صفته في كتبهم- فقال الله جل ثناؤه فيهم: "**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**"[8]"[9]، فنقل معنى الكفر من اللغة إلى الاصطلاح واستشهد له بآية أخرى من موضع آخر في سورة البقرة نفسها، واضح السياق والدلالة على معنى الكفر.

---

[1] - سورة البقرة آية 123.
[2] - سورة النجم آية 36.
[3] - جامع البيان، ج2 / ص: 8.
[4] - سورة البقرة آية 19.
[5] - سورة الحج آية 11.
[6] - جامع البيان، ج1 / ص: 358.
[7] - سورة البقرة آية 5.
[8] - سورة البقرة آية 158.
[9] - جامع البيان، ج1 / ص: 255.

٢- وفي قوله تعالى:"**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**" [1] قال: "عن عكرمة في قوله: (يتلونه حق تلاوته)، قال: يتبعونه حق اتباعه، أما سمعت قول الله عز وجل:" **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا** " [2]، قال: إذا تبعها"[3]، فدلّ لمعنى الاتباع في لفظ (التلاوة) من موضع آخر في سورة أخرى (سورة الشمس).

٣- وفي موضعٍ آخر، عند قوله تعالى: "**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا * وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**" [4]، استدلّ رحمه الله لبيان معنى المرض في الآية، بأنه مرض حسي وليس معنوي، وأن المقصود به هو ما في قلوبهم من الشك والحيرة، استدل لذلك بآية أخرى في سورة التوبة، جاءت في نفس سياق هذه الآية فقال:

"فالمرض الذي أخبرَ الله جل ثناؤه عنهم أنَّه زادهم على مرضهم، نظيرُ ما كان في قلوبهم من الشَّكِّ والحَيْرة قبل الزيادة [...]، قال جل ثناؤه في تنزيله: " **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** " [5]، فالزيادة التي زِيدَها المنافقون من الرَّجاسة إلى رَجاستهم، هو ما وصفنا. والتي زِيدَها المؤمنون إلى إيمانهم، هو ما بيَّنا. وذلك هو التأويل المجمَعُ عليه"[6].

*** حمل القراءات بعضها على بعض**

لقد تعدّد تناول هذا الوجه من أوجه البيان عند الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره، فالقراءات القرآنية الثابتة بالتواتر متعبّد بتلاوتها، ومن تم فهي معتمدةٌ في الأخذ بمعانيها إذا تعدّدت، فإن كان الاختلاف بينها اختلاف تنوع وأمكن الجمع بين القراءات فهو الأولى، أما إن كانت محلّ تعارضٍ فإنه يُلجأ إلى قرائن أخرى لدرء هذا التعارض والترجيح. أما القراءات غير المتواترة (الشاذّة) فلا خلاف في أنها يمكن أن تعتمد في التفسير، وذلك أنها في غالبها إضافات من اجتهادات الصحابة الكبار، فسَّروا بها بعض الألفاظ والمعاني ليحملوها بها على وجه واحد من عدة أوجه يحتملها اللفظ أو السياق.

أولاً: بيان معنى المفردة بمفردة أخرى أوضح منها في قراءة أخرى

وبيان هذا الوجه من التأويل هو النظر في ما دلت عليه القراءة الأخرى، كأن يدل اللفظ في قراءة على معنى ويجيء له بيانٌ في قراءة أخرى؛ إما بلفظ أوضح أو بزيادة فيه عند قراءة أخرى.

ومثاله اختلاف القُرّاء في لفظ (يطهرن) من قوله تعالى: "**وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ * فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**" [7]، فقد قرأ بعضهم بضم الهاء وتخفيفها (يَطْهُرْنَ)، وقرأ آخرون بتشديد الهاء وفتحها (يَطَّهَّرْنَ).

"وأما الذين قرأوه بتخفيف الهاء وضمها، فإنهم وجهوا معناه إلى: ولا تقربوا النساء في حال حيضهنّ حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويَطهُرن. وقال بهذا التأويل جماعة

[1] - سورة البقرة آية 120.
[2] - سورة الشمس آية 2.
[3] - جامع البيان، ج2 / ص: 569.
[4] - سورة البقرة آية 9.
[5] - سورة التوبة آية 125-126.
[6] - جامع البيان، ج1/ ص: 280-281.
[7] - سورة البقرة آية 220.

من أهل التأويل [...]. وأما الذين قرأوا ذلك بتشديد الهاء وفتحها، فإنهم عنوا به: حتى يغتسلن بالماء.

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ: (حَتَّى يَطَّهَّرْنَ) بتشديدها وفتحها، بمعنى: حتى يغتسلن، لإجماع الجميع على أن حرامًا على الرجل أن يقرَب امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تطهر"[1].

ثانياً: بيان معنى المفردة بكلمات زيدت في قراءة أخرى

ومثاله عند الإمام الطبري في سورة البقرة زيادة (وهي العصر) في قوله تعالى: "**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**" [2]، وهي الزيادة المروية عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم أمُّنا عائشة رضي الله عنها ونقل أيضاً عن حفصة وأم سلمة وعن عليٍّ وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً، وقد أطال الإمام الطبري في سرد أسانيده عن السلف، وكلها تؤكّد هذا الوجه من التأويل، وهي أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.[3]

ومثاله أيضاً زيادة (فاختلفوا) عقب قوله تعالى: "**كانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**" [4]، فقد "اختلف أهل التأويل في معنى (الأمة) في هذا الموضع، وفي الناس الذين وصفهم الله بأنهم (كانوا أمة واحدة) [...] عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)"[5]، فرجّح الإمام الطبري معنى واحداً على غيره في المقصود من الأمة وأيضا في تعيين المعنيين بالذكر، وذلك بناء على قراءة ابن عباس للآية، وهي بزيادة لفظ (فاختلفوا).

*** احتمال اللفظ لأوجه مختلف كلها يشهد لها القرآن**

أولاً: حمل اللفظ على أوجه متعددة يشهد لها القرآن من غير ترجيح

اتفق العلماء على عدم الترجيح بين معاني اللفظ إذا تساوت في الاحتمال، و لم يظهر دليل يرجح بعضها على بعض، كما هو الحال في الألفاظ المشتركة، والمتواطئة، ولا سيما إذا شهد لكل منها شواهد من القرآن، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك فيما ينبغي العمل به، فمنهم من قال بالتوقف، ومنهم من قال بجواز حمل اللفظ في هذه الحالة على جميع المعاني المحتملة إن لم يمنع من ذلك مانع، وإذا امتنع الجمع صِيرَ إلى الترجيح باعتماد قرائن أخرى كالسياق وغيره..[6]

وهذا وجه بديع من أوجه تفسير القرآن بالقرآن، وقد حرصت على بيان مثاله عند الإمام الطبري في سورة البقرة وإن كان خفياً، وذلك لنكتته وثمرته، ففي تفسيره قول الله تعالى: "**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا** "[7]، قال: "يعني بقوله (السمع): قبول ما يسمع، والطاعة لما يؤمر. فكذلك معنى قوله: (واسمعوا)، اقبلوا ما سمعتم واعملوا به"[8]، وهذا حمل لمعنى السمع على ما يحتمله من معنى السمع بالأذن، وما يحتمله أيضاً من معنى السمع أي الطاعة، وقد بيّن هذا الفرق بالتفصيل الشيخ الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان فقال: "قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى

[1] - جامع البيان، ج4، ص: 383-384.
[2] - سورة البقرة آية 236.
[3] - أنظر: جامع البيان، ج5 / ص: 173 - 198.
[4] - سورة البقرة آية 211.
[5] - جامع البيان، ج4 / ص: 275.
[6] - أنظر: تفسير القرآن بالقرآن، ص: 551 وما بعدها.
[7] - سورة البقرة آية 92.
[8] - جامع البيان، ج2 / ص: 357.

الإجابة، ومنه قولهم: سمعا وطاعة؛ أي: إجابة وطاعة، ومنه: سمع الله لمن حمده في الصلاة أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله:"**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا * وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** "[1]، وهذا قول الجمهور، وقيل: إن المراد بقوله (واسمعوا) أي: بآذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع، ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: "**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**" [2]"[3]

ومثاله أيضاً عند قوله تعالى:"**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** "[4]، فقد ذكر الإمام الطبري عند تفسير هذه الآية قولين في تأويل معنى (عهد) الله و (عهد) المخاطَبين:-

الأول: "(أوفوا بعهدي)، فما عهدت إليكم في الكتاب، وأما (أوف بعهدكم) فالجنة، عهدت إليكم أنكم إن عملتم بطاعتي أدخلتكم الجنة [..]. عن ابن جريج في قوله: (وأفوا بعهدي أوف بعهدكم)، قال: ذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في المائدة: "**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا * وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ * لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** "[5]، فهذا عهد الله الذي عهد إليهم، وهو عهد الله فينا، فمن أوفى بعهد الله وفى الله له بعهده."

الثاني: "قال ابن زيد في قوله: (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم)، قال: أوفوا بأمري أوف بالذي وعدتكم، وقرأ: " **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ * يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ * وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ * وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ * فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ * وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** "[6]، قال: هذا عهده الذي عهده لهم"[7]

و لم يرجح الإمام الطبري رحمه الله أيّاً من المعنيين على الآخر، فكلاهما تحتمله الآية.

ثانياً: ترجيحُ حمل اللفظ على ما يشهد له القرآن من المعنى وهذا من أوجه الدلالة على قوة تفسير القرآن بالقرآن على غيره، وذلك أنه إذا تعددت القرائن الحاملة للفظ على معان مختلفة، رُجّح منها ما شهد له القرآن بالاعتبار على غيره دون الالتفات إليه، ومن أمثلة ذلك عند الإمام الطبري في تفسيره سورة البقرة، بيانه للآية:"**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ * إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**"[8]، فبعد أن سرد رحمه الله الأقوال المتعدّدة في تفسير صيغة هاته الكلمات ومعناها، ردّ الأقوال جميعاً إلى ما شهد له النص القرآني

---

1 - سورة النور آية 49.
2 - سورة نوح آية 7.
3 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت 1393هـ)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، 1415 هـ - 1995م، ج1 / ص: 41.
4 - سورة البقرة آية 39.
5 - سورة المائدة آية 13.
6 - سورة التوبة آية 112.
7 - جامع البيان، ج1 / ص: 558-559.
8 - سورة البقرة آية 36.

بالاعتبار، فقال: "وهذه الأقوال التي حكيناها عمن حكيناها عنه، وإن كانت مختلفة الألفاظ، فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقى آدم كلمات، فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن، وتاب بقيله إياهن وعمله بهن إلى الله من خطيئته، معترفا بذنبه، متنصلا إلى ربه من خطيئته، نادما على ما سلف منه من خلاف أمره، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه، وندمه على سالف الذنب منه.

والذي يدل عليه كتاب الله، أن الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه، هن الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلا بقيلها إلى ربه، معترفا بذنبه، وهو قوله:"**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**" [1]، وليس ما قاله من خالف قولنا هذا –من الأقوال التي حكيناها– بمدفوع قوله، ولكنه قول لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم، وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه".[2]

*** ترجيح لفظ محتمل على غيره من الألفاظ المحتملة أيضاً**

أولاً: الترجيح بظاهر القرآن

الظاهر "هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة، ويكون محتملًا للتأويل والتخصيص"[3]، ولا يعدل عنه إلا بتأويل صحيح، والظاهر هو الأصل والراجح عند تفسير القرآن، فلا يُتكلّف في صرف النظر عنه إلى غيره مما هو مرجوح ما لم يشهد لذلك دليل صحيح قوي ومعتبر، وهو وجه من البيان مشهور وواضح في كل تفاسير القرآن وعند جميع الأئمة، ولكني أستشهد بموضع من تفسير الإمام الطبري، نص فيه لفظاً عن الأخذ بظاهر القرآن، وذلك عند تفسيره قول الله تعالى: " **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** " [4]، قال: "يعني: أنها لا تقضي عنها شيئا لزمها لغيرها؛ لأن القضاء هنالك من الحسنات والسيئات على ما وصفنا. وكيف يقضي عن غيره ما لزمه من كان يسره أن يثبت له على ولده أو والده حق، فيؤخذ منه ولا يتجافى له عنه؟

وقد زعم بعض نحويي البصرة أن معنى قوله: (لا تجزي نفس عن نفس شيئا): لا تجزي منها أن تكون مكانها. وهذا قول يشهد **ظاهر القرآن** على فساده.."[5]، فردّ رحمه التأويل الذي خالف ظاهر القرآن، وذلك لما فيه من تكلّف. والحقيقة أن غالب محل الضلال عند أهل الانحراف هو في التأويل الفاسد أو الجمود الخاطئ، فإما أنهم يتكلّفون في صرف اللفظ عن ظاهره من غير دليل يرجح هذا الصرف، أو أنهم يتوقفون عند الظاهر الذي شهدت أدلّة قويّة راجحة على تأويله، وبذلك كان مبحث التأويل محل العثرة عن الكثير ممن خالفهم جمع الأدلة وتدقيق النظر فيها.

ثانياً: ترجيح معنى عن المعاني الأخرى المحتملة بقرينة السياق

يعدّ السياق من أقوى القرائن الدالة على المراد من اللفظ عند العرب، فقد تستعمل العرب كلمة في سياق فتؤدي به مقصوداً، وتضعها في سياق مختلف آخر ترجع منه إلى خلاف المعنى الأول، بل حتى إلى ضدّه، "والمتتبع

---

[1] - سورة الأعراف آية 22.
[2] - جامع البيان، ج1 / ص: 546.
[3] - كتاب التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م، ص: 143.
[4] - سورة البقرة آية 47.
[5] - جامع البيان، ج2 / ص: 36.

لنصوص المفسّرين من السلف والخلف، يجدها مليئة بتحكيم ما يرد في السياق من القرائن اللفظية والمعنوية فيما يقولون به من التفسير، وترجيح الآراء التي تراعي انتظام الكلام واعتلاق أوله بآخره"[1].

وقد اعتمد الإمام الطبري رحمه الله الأخذ بسياق الكلام في عدّة مواضع، أورد منها في سورة البقرة حمله للمقصودين في قوله تعالى: "**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ * كَذَلِكَ** " [2] على أنهم هم النصارى، فقال بعد أن أورد الآراء المختلفة في تعيينهم: "وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل: إن الله تعالى عنى بقوله: (وقال الذين لا يعلمون)، النصارى دون غيرهم. لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افترائهم عليه وادعائهم له ولدا. فقال جل ثناؤه، مخبرا عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم أنهم مع افترائهم على الله الكذب بقوله: "**وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * سُبْحَانَهُ** " [3]" [4].

*** بيان مرجع الضمير**

وهذا الوجه من بيان القرآن بالقرآن مرتبط بسابقه، إذ إن "العمدة في تفسير الضمير وبيان مرجعه في القرآن الكريم على دلالة سياقاته، وما تحويه من مذكور أو معلوم من السياق العام للكلام"[5]، ومن التفسير الواضح للضمير أن يكون مذكوراً بلفظ قبله أو بعده، وأو بجملة تأتي بعده، أو تفسيره بدلالة السياق، وغيرها من أوجه تفسير الضمير، وقد اعتمد ذلك الإمامُ الطبري في بيان المقصودين كما سبق، فذكر أن الخلاف حاصل في هل هم النصارى أم كفّار العرب، ثم رجّح القول بأنهم نصارى، وهذا ترجيح منه بقرينة السياق الدالة على المراد من الضمير المذكور.

ومن أوجه بيان مرجع الضمير ما ذكره الإمام الطبري رحمه الله في بيان مرجه الضمير المنفصل (ذلك) عند أول آية في سورة البقرة: "**الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ * فِيهِ * هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** "[6]؛ "ترجمهُ المفسِّرون: أنه بمعنى (هذا)، لقرب الخبر عنه من انقضائه، فكانَ كالمشاهَد المشار إليه بـــ (هذا)، نحو الذي وصفنا من الكلام الجاري بين الناس في محاوراتهم، وكما قال جل ذكره:" **وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ * وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ * وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**" [7]، فهذا ما في (ذلك) إذا عنى بها (هذا)" [8].

ومن أوجه بيان مرجع الضمير أيضاً، أن إعادته على مذكور أولى من إعادته على غير مذكور[9]، ومن أمثلة ذلك في تفسير الإمام الطبري بيان الهاء مرجع الهاء المذكورة في قوله تعالى: "**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ** "[10]، فقد رجّح بعد أن ذكر الأقوال في تأويل الآية فقال: "قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين)، منسوخ بقول الله تعالى ذكره: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه). لأن الهاء التي في قوله: (وعلى

---

[1] - تفسير القرآن بالقرآن، ص: 481.
[2] - سورة البقرة آية 117.
[3] - سورة البقرة آية 115.
[4] - جامع البيان، ج2 / ص: 552.
[5] - تفسير القرآن بالقرآن، ص: 589.
[6] - سورة البقرة آية 1.
[7] - سورة ص آية 47-48.
[8] - جامع البيان، ج1 / ص: 226.
[9] - نفسه، ص: 602.
[10] - سورة البقرة آية 183.

الذين يطيقونه)، من ذكر (الصيام) ومعناه: وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين"[1].

*** بيان المحذوف من الجملة**

وهذا الوجه من التأويل له ارتباط بسابقه، أي بمرجع الضمير، فقد يحذف من الآية جملة، فيلزم لفهمها (أي الآية) استحضارها وفهم محل وقوعها وعلى ماذا تدل أو ترجع، ومثاله في عند الإمام الطبري عند تفسيره قول الله تعالى: "**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ * وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ * وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**"[2]، فهل الختم في نفس الآية يعود على الأبصار أيضاً، أم يعود على القلب والسمع فقط، وأما البصر فيقع عليه الغشاوة، فأكّد ذلك بقوله: "أنّ الختمَ غيرُ موصوفةٍ به العيونُ في شيء من كتاب الله، ولا في خبر عن رسول الله ﷺ، ولا موجودٍ في لغة أحد من العرب. وقد قال تبارك وتعالى في سورة أخرى: "**وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ**"[3]، ثم قال: "**وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً**"[56]، فلم يدخل البصرَ في معنى الختم"[4].

وروى الطبري ايضاً عن ابن جُريج قال: "الختمُ على القلب والسمع، والغشاوة على البَصَر، قال الله تعالى ذكره: " **فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ** "[5]، وقال: "**وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً**"[56]"[57]

فهذا بيان للمحذوف، وتقديره: (ختم الله على قلوبهم، وختم على أسماعهم، وعلى أبصارهم غشاوة)، فالختم يقع على السمع والقلب فقط، والغشاوة تقع على البصر.

*** خاتمة**

من خلال هذه الدراسة التطبيقية الدقيقة الهادفة، والتي ترمي إلى ضبط الجانب النظري لأصل مهم من أصول التفسير (وهو تفسير القرآن بالقرآن)، ثم الانتقال بعد ذلك بما تم اكتسابه، إلى الجانب التطبيقي العملي، للنظر في تنزيل هذه القواعد وملامسة تفعيلها والتدرب على كيفية استخراجها، وذلك من خلال أئمة التفسير، وأعمدة التأويل، تبيّن لي بحمد الله تعالى من ذلك أمران اثنان:-

الأول: لقد اعتمد أئمتنا وفقهاؤنا المتقدّمون قواعد دقيقة ورصينة في تفسيرهم لكلام الله عزّ وجلّ، فأسسوا بذلك صرحاً شامخاً، وأحاطوا بكلام الله سياجاً عامراً، يقفون به في وجه كل من تسوّل له نفسه التكلم في كلام الله من غير علم ولا هدى، وتلك القواعد والأصول، هي مصابيح الهدى لنيل المعرفة الصحيحة بمراد الله تعالى من كلامه، ومن تمّ امثاله والعمل به، ومن أنكر وجود هذه القواعد، أو لزوم الأخذ بها، أو نفى عن الأئمة أخذهم بها بدعوى أنهم لم يسموها بما سماها به المتأخرون، فهو إما جاهل، أو معاند مكابر.

الثاني: الوقوف على أصول التفسير وأوجهها من خلال أمهات التفاسير، يقوّي أولا ملكة الفهم والإدراك من خلال الاحتكاك بكتب المتقدّمين والرشف من لغتهم وأسلوبهم، ويقوّي ثانياً ملكة التتبع والاستقراء، كما يقوّي ثالثاً الحسّ المنهجي في ترتيب ما يُستخرج من هذه القواعد.

*** المراجع**

القرآن الكريم برواية حفص.

[1] - جامع البيان، ج3 / ص: 434.
[2] - سورة البقرة آية 6.
[3] - سورة الجاثية آية 22.
[4] - جامع البيان، ج1 / ص: 262-263.
[5] - سورة الشورى آية 22.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت 1393هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، 1415 هـ - 1995م.

الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م.

تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2003 م.

تفسير القرآن بالقرآن دراسة تاريخية ونظرية للدكتور محمد قجوي، مركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء، مطلعة المعرف الجديدة، الطبعة الأولى، 1436هـ/ 2015م.

جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م.

سير أعلام النبلاء شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405 هـ / 1985 م.

طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت 771هـ)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1413هـ.

قواعد التفسير جمعاً ودراسة لخالد بين عثمان السبت، سلسة القواعد والضوابط والكليات، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1421هـ.

كتاب التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ -1983م.